SIBAWAYH Arabic Language and Education Vol.1 No.2 2020
eISSN 2716-5515 (118-131)

# الوظيفة الجمالية للنحو في تراثنا النقدي العربي القديم
# عبد القاهر الجرجاني نموذجاً

*The esthetic function of grammar in our ancient Arab critisism heritage- Abdul-Qaher Al-Jorjani as a model*

**حنان المراكشي**

**الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس– مكناس، المغرب**

Hanan El Marrakchi
Regional Academy for Education and Formation Fes-Meknes, Morocco
aminerim2677@gmail.com

DOI:https://doi.org/10.37134/sibawayh.vol1.2.9.2020

Received: 30 June 2020; Accepted: 17 September 2020; Published: 30 September 2020

Cite this article (APA): El Marrakchi, H. M. (2020). الوظيفة الجمالية للنحو في تراثنا النقدي العربي القديم عبد القاهر الجرجاني نموذجاً. *SIBAWAYH Arabic Language and Education*, *1*(2), 118-131.
https://doi.org/10.37134/sibawayh.vol1.2.9.2020

## ملخص:

يمثل عبد القاهر الجرجاني بكتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" في تراثنا العربي أنضج المحاولات في تحليل الأسلوب أو النص الأدبي على أساس من فهمه لوظيفة النحو في نظام الكلام وإنتاج الدلالة. فقد اهتدى إلى حقيقة مفادها أن أي قول أدبي إنما هو كلام ينتمي إلى اللغة، لكنه يتميز بخصائص يمكن تحديدها، تدخله في حدود الفن، فهو يميز على نحو ضمني، بين اللغة بمعنى النظام النحوي الراسخ في وعي الجماعة، والكلام بمعنى التحقق الفعلي لهذه القوانين في حدث كلامي بعينه، فعلاقة الشاعر–مثلا– بألفاظ اللغة أشبه ما تكون بعلاقة الصانع بمادته الخام، فهذا الأخير لا يبدأ المواضعة على الألفاظ أو تحديد دلالاتها، ولكنه يعيد تشكيل الألفاظ المتواضع عليها في علاقات جديدة، لتنتج شكلا يؤثر بدوره في دلالاتها، ومن تم يمنحها بلاغتها وفصاحته.ولا يقف الشاعر عند هذا الحد فقط بل تمتد مكابدته إلى الدلالات النحوية التي يسميها عبد القاهر "معاني النحو" وكيفية توظيفها توظيفا مؤثرا.

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن النظرية النحوية الجرجانية ورصد منطلقاتها التي تنطوي على قدر كبير من الصنعة والحذق،لذلك نحدد إشكالية البحث في : كيف استطاع الجرجاني أن يعلو بالنحو من مجرد العناية بالإعراب وتمييز الخطأ من الصواب،إلى إمكانات إبداعية تحقق للأسلوب جمالية خاصة؟.أما عن المنهج المعتمد، فهو المنهج الوصفي التحليلي، الذي يتجلى في عرض النصوص وتحليلها، لإبراز العناصر المكونة لنظرية الرجل النحوية، ثم بيان أهمية ودور كل عنصر من هذه العناصر في تحقيق الوظيفة الجمالية في الكلام.وقد أتت الدراسة في تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول: عبد القاهر الجرجاني وفلسفته النحوية.

المبحث الثاني: دور النحو في إنتاج الدلالة.

المبحث الثالث: العلاقات النحوية الإبداعية.

**الكلمات المفتاحية**: النظم- معاني النحو- الفروق و الوجوه—الإعراب-الأسلوب.

**Abstract**

In his books “DalaelI”jaz” and “Asraralbalara”, Abdul-Qaher Al-Jorjani represents "the secrets of rhetoric" and "the signs of miracles" in our Arab heritage, the most mature attempts in analyzing literary style or text are based on his understanding of the function of grammar in the speech system and the production of the significance. He was guided by the fact that any literary statement is language-based but has identifiable characteristics, which he enters within the limits of art, which implicitly distinguishes between language in the sense of a well-established grammar system in the consciousness of the community and speech in the sense of the actual realization of these laws in a particular speech. The poet's lexical work - for example - with the language similar to that of the manufacturer's relation with its raw material, the latter does not start the subject of words or its meaning, but reforms the humble words on them in new relationships, producing a form that affects its significance, and who is given its eloquent communication. The poet is not only standing at this point, but her own example extends to the semantics that Abdul Qaher calls “ meanings of the grammar” .The research seeks to reveal the grammar theory of Abdul Qaher Al-jorjani, which came in introduction, three chapters, and conclusion. The first: Abdul Qaher Al-Jorjani and his grammar philosophy. Second: The role of grammar in the production of significance.The third: Creative grammar relationships.

**Key words**: *Systems – Meaning of grammar – Differences and faces – Functions of words –style*

## تمهيد

مما لا شك فيه أن النحاة هم أصحاب الفضل الأول في نشأة البلاغة، فالبلاغيون لم يبدأوا التفكير في موضوعهم من العدم، وإنما بنوا صرح البلاغة على أساس جهود من تقدمهم من النحاة واللغويين، إذ إنمسلمة التلاقح بين علمي النحو والبلاغة واسعة، تبدأ بأعلام النحويين البلاغيين وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني، الذي فهم النحو فهما خاصا، حيث لم يصبح المقصود به مجرد وسيلة تستعين بها اللغة في أداء وظيفتها الأساسية، وذلك بمراعاة القواعد والإعراب، التي تقف بالنحو عند حدود

الحكم بالصحة والفساد، ولكن المقصود هو تلك الأداة الفاعلة التي تسهم بقسط وافر في تشكيل الصياغة من جهة، والكشف عن جماليات اللغة من جهة ثانية.

وإذا كان من المؤكد أن عبد القاهر قد انتفع بجهود السابقين في نظريته، وأنهم كانوا أشعة أناروا له الطريق، فإن ذلك لا يصلح أن يكون موضع طعن بالنسبة إليه، لأن ما كتبه هؤلاء لا يعدو أن يكون شبحا ضئيلا لم تتحدد معالمه أو تتضح قسماته، ذلك أن النظم قبل الجرجاني لم يكن مقصودا عن عمد، وإنما هو شيء عفوي نابع من ملاحظات العلماء حين يؤخذون بجمال الشعر أو الإعجاز في القرآن الكريم. أما عبد القاهر فقد استغل ما كتبه النحاة، وأحسن استغلاله، فالنظم عنده عمل مدروس، ومحور يدور حوله كتاب الدلائل كله بل وهو القصد من تلك الدراسة الواسعة التي نهضت على أكتاف النحو، وعلى تماسك لبناته حتى إنه يرجح كل جمال في الأسلوب (النظم) إلى مراعاة أحكام النحو.

**المبحث الأول: عبد القاهر الجرجاني وفلسفته النحوية :**

اهتم الجرجاني بالنحو اهتماما شديدا وشدد النكير على من يزهد فيه أو يحقر من شأنه، فهذا الصنيع عنده بمثابة من يصد عن كتاب الله ومعرفة معانيه. لأن النظرية كلها قائمة على معاني النحو والحاجة إليه ماسة وضرورية حيث «إن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها وإن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وإنه المقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه»(الجرجاني، 1988). كما يشير في وضوح إلى تلك العلاقة بين النظم والنحو، في عديد من صفحات الكتاب فيقول: «هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة» (الجرجاني، 1988). ولا يفرق بين معاني النحو والنظم، بل يجعل منهما كلمتين مترادفتين لشيء واحد «فليس النظم شيئا إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم» (الجرجاني، 1988). ثم إن النظم في جوهره هو النحو في أحكامه، لا من حيث الصحة والفساد فحسب بل من حيث المزية والفضل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه... فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو

وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه.

لقد كانت مهمة النحو عند الناس قبل عبد القاهر مقصورة على صحة التراكيب وسلامتها من الخطأ. ومن ثم كان النحو أقرب إلى المنطق منه إلى اللغة بمعناها الرحيب. خاصة وأن هناك العديد من نماذج التصميم النحوي التعليمي التي تم تطويرها واستخدامها على مدار العقود القليلة الماضية.

There are many instructional design models that have been developed and used over the past few decades. (Saipolbarin Ramli, 2020)

وقد كان السيرافي يسوي بين النحو والمنطق. لكن عند قراءتنا للنصوص التي كشف فيها عبد القاهر عن مفهوم النحو فإننا نجد أنفسنا أمام اتجاه جديد في فهم النحو.

يرتكز عبد القاهر في توضيحه لمعاني النحو التي يقيم عليها مفهومه للأسلوب أو النظم على مبدأ التقسيم الثلاثي للكلمة – من حيث الشكل والبنية- في اللغة العربية، ووجوه تعلق كل منها بالآخر، فالمتكلم الذي يعبر عن معنى من المعاني إنما ينطق بالألفاظ الدالة عليها مرتبه في علاقات نحوية تعكس تصوره لهذا المعنى، يقول المؤلف: «لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك» (الجرجاني، 1988). هذا التحديد يثير سؤالين هامين هما: ما المقصود بالتعليق؟ وكيف تتحقق العلاقة السببية بين الكلمات؟

يجيب عبد القاهر نفسه عن السؤال الأول حيث يذكر أن التعليق ما هو: إلا أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعول، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر، أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول أو توكيدا له أو بدلا منه، أو تتوخى لكلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك.

يلاحظ أن مدار التعليق على ثلاثة عناصر تسهم في تحقيقه وهي الاسم والفعل والحرف، وهذه العناصر هي التي تحقق الوظائف النحوية كالفاعلية والمفعولية، والابتداء والإخبار وغيرها، بمعنى أن طرق التعليق لا تخرج عن ثلاث:

- تعلق اسم باسم
- تعلق اسم بفعل
- تعلق حرف بهما

أما العلاقة السببية – كما ورد في تعريف عبد القاهر- فتتحقق من خلال الترابط الدلالي بين الكلمات، فالفعل مثلا قد كان سببا فيه فاعل في الجملة، والمفعول مرتبط كذلك بعلاقة سببية مع الفاعل، لأنه هو الذي ساهم في إيقاع الفعل عليه. وتساهم في هذه العلاقة السببية مظاهر التعليق النحوي والتي تتحدد في دائرتين: الرتبة والإعراب.

فالرتبة تتحدد من خلال الموضع الذي يحتله كل من الفعل والفاعل والمفعول وغيرها في الجملة، أما الإعراب فيتمثل من خلال الحركات الإعرابية التي تساعد في كشف الغموض عن الألفاظ. هذا التعلق وهذا الترابط المنطقي الموجود بين الأسماء والأفعال والحروف هو الذي عبر عنه مصطفى ناصف بتعبير لا يخلو من سخرية «الفعل يطارد الاسم، والاسم يطارد الفعل، يريد الفعل أن يتحرك ويريد الاسم غير ذلك، يريد الاسم أن يتحقق ويثبت أو يستقر ويسكن ويريد الفعل غير ما يريد الاسم» (السيد، 2015).

هذا هو المفهوم الأول عند عبد القاهر، ويلاحظ فيه أنه لا يمثل المستوى الراقي للأسلوب، كما سيتضح في المفهوم الآخر- الذي سأحاول تحديده في الأسطر اللاحقة-، ذلك أن المفهوم الأول يتحدث عن النظم باعتباره تأليفا وتركيبا نحويا تراعى فيه قوانين النحو. والكلام في هذا المستوى لا تتحقق فيه الفضيلة والمزية، لأن الكلام البليغ والكلام العادي يشتركان في هذه النقطة، فكلاهما يحصل فيه التعلق بين الفعل والفاعل والمفعول.

وقد تنبه لهذه النقطة الدكتور حمادي صمود في إشارته إلى أن هذه الطريقة في التعريف لا تناسب ما عزم عليه المؤلف من تطوير للبحث البلاغي، وتجاوز لقصور سلفه في بيان مكان الفضل والمزية في الكلام، ووصف الخصوصية التي أضافوها إلى النظم (صمود، 1981).

أما المفهوم الثاني فيبدو مغايرا لسابقه من حيث الصياغة، ومن حيث القضايا التي يثيرها فليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها. وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه وفي موضع آخر من الكتاب يعرف النظم بأنه ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم.

يبدو من خلال هذين النصين أن لمصطلح النحو مكانة هامة عنده فيسميه تارة بعلم النحو ويسميه أخرى بمعاني النحو، ويدعو إلى أن يكون الكلام مقتضيا لهذا العلم متحققا فيه، كما يدعو الناظم

لأن ينظم القول وفق قوانينه وأصوله، وألا يخرج عن هذه القواعد المرسومة والمناهج الموضوعة، لأن في زيغه عنها سيكون هناك اختلال في النظم وفساد في التأليف.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ماذا يعني الجرجاني بعلم النحو ومعاني النحو، هل هي القواعد النحوية والحركات الإعرابية الموجودة في أواخر الكلم؟ أم الأمر أكثر من ذلك؟

للإجابة عن هذا السؤال أعود إلى النص – وقد سبقت الإشارة إليه- الذي يتحدث فيه عن أهمية النحو، فيشدد الوعيد لمن زهد فيه، وتهاون في تعلمه، كما يشيد كذلك بقيمة الإعراب وفضيلته، فيتضح أن للإعراب وظيفتين أساسيتين عند الجرجاني:

***الوظيفة الأولى***: هي الكشف عن المعاني المخبوءة في الألفاظ، ولا أظنه يقصد إلا معاني الفاعلية والمفعولية والابتداء والإخبار وغيرها لأن هذه الأشياء تتجلى بالحركات الإعرابية أساسا فحينما نأخذ المثال: ضرب زيد عمرا، يتضح أن الرفع هو الذي أظهر معنى الفاعلية للاسم زيد، والنصب هو الذي كشف لنا معنى المفعولية في اللفظ عمرو.

***الوظيفةالثانية:*** وهي تقويم الكلام، وتحديد مدى سلامته وصحته من الناحية النحوية وذلك اعتمادا على قواعد مضبوطة، وقوانين مسطرة.

هذا التصور عند عبد القاهر يوحي بأن هناك علاقة بين معاني النحو وقواعد النحو والإعراب، لكن عندما نتفحص الكتاب، نجد نصا آخر هو على النقيض مما سلف يقول فيه: «ومن ها هنا لم يجز إذا عد الوجوه التي تظهر بها المزية، أن يعد فيها الإعراب، لأن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم، ليس هو مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالروية، فليس أحدهم بأن إعراب الفاعل الرفع أو المفعول النصب والمضاف إليه الجر بأعلم من غيره، ولا ذاك المفعول به مما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن وقوة خاطر»(الجرجاني، 1988).

إن ما في هذا النص يحيل على بعض الجوانب التي تجعل من الإعراب والنحو شيئا غير معاني النحو، أولها، أنه مشترك بين العرب، وهذا يدل على أن معاني النحو شيء لا يشترك فيه جميع الناس، بل يكون لدى فئة مخصوصة توفرت لها من الإمكانات العقلية والثقافية ما أهلها لذلك. وثانيها، أن الإعراب ليس مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالروية، وهذا يوحي بأن معاني النحو تستنبط بالعقل النابه والفكر الثاقب، وثالثها أن الإعراب لا يتطلب قدرة عقلية متميزة في تحديد الفاعلية والمفعولية والحالية والابتداء والإخبار في حين تتطلب معاني النحو هذا الأمر. ويشير عبد القاهر في أحد تعريفاته

للنظم إلى ثلاث مصطلحات تعتبر مفاتيح لفهم نظريته وهي: الوجوه، الفروق، الوضع، ويحدد الوجوه من خلال أمثلة للخبر والوجوه التي يكون عليها في قولنا: زيد منطلق وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق. فهذه هي الوجوه التي يكون عليها الخبر، ويوجد بينها فروق كثيرة في المعاني، فكل وجه له معنى يفيده مخالف للوجه الآخر، ونفس الشيء يقال عن الشرط والجواب وعن الحال وعن الحروف ووضعها، والجمل في موضع الوصل والفصل والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار. إن النظم بهذا هو معرفة مكان كل وجه من هذه الوجوه المذكورة واستعمال ذلك على الصحة وعلى ما ينبغي له.

وبهذا فمعاني النحو عند عبد القاهر درجتان: درجة تجري فيها معاني النحو في حدود الصحة المعروفة عند علماء النحو، والجرجاني لا ينكر هذا الجانب وإن كان لا يعده محددا لحقيقة النظم، ودرجة تجري فيها هذه المعاني في ميدان التخير وهو ما سماه بعض الباحثين بالنحو البلاغي.

وعلى هذا الأساس، استطاع عبد القاهر أن يدرك بغيته في التوفيق بين الشكل المادي للصياغة والجانب العقلي للمعنى عن طريق الاستعانة بالنحو التقليدي مع تحويله إلى إمكانات إبداعية بالنظر في الصورة النحوية الظاهرة ومسبباتها الوظيفية، وهكذا لم يكن اهتمامه بالناحية الوصفية إلا وسيلة لإدراك الجانب العقلي في الصياغة (عبد المطلب، 1995).

## المبحث الثاني: دور النحو في إنتاج الدلالة :

لقد فطن عبد القاهر إلى أن المعنى الذي نصل إليه من نظم كلام ما، وتأليفه وفقا للعلاقات النحوية، ليس إلا معنى واحدا لا يمكن أن يتجزأ، فعلاقة المتكلم بمفردات لغته وتصرفه فيها بالتركيب على نسق خاص أشبه بعلاقة الصائغ الذي يأخذ قطعا من الذهب فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، فإذا تناثرت مجموعة من الكلمات، وأخذت وضعا يمتنع معه دخول أي معنى من معاني النحو فيها لم يتحقق للأسلوب معنى من الأساس(السيد، 2015). وبذلك تكون المزية باتحاد أجزاء الكلام ودخول بعضها في بعض من خلال علاقات منظمة متناسقة، ولن يحدث ذلك إلا بتوخي معاني النحو الدقيقة بحيث تختار في الأسلوب أفضل البدائل التي يطابق بها مقتضى الحال وتناسب المعنى المراد التعبير عنه بدقة. ويعمل عبد القاهر على توضيح هذه الفكرة بقوله: «وإن أردت أن ترى

ذلك عيانا فاعمد على كلام شئت، وأزل أجزاءه عن مواضعها، وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل في: قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل: "من نبك قفا حبيب ذكرى ومنزل" ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها؟» (الجرجاني، 1988).

إذن، فالرابط الأساسي والقطب المحوري في أي عملية كلامية هو العقل أو المستوى العقلي الذي يعطي للكلام ترتيبه اللائق وصورته المقبولة، التي تبدأ في نفس المتكلم وتنتهي إلى ذهن السامع، فيتم عندها الاتصال اللغوي.

ولماعرف عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" النظم بكونه توخي معاني النحو فيما بين الكلم،أكد أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، ويأخذ بعضها بأطراف بعض، موضحا أن هذاالتعليق-كما ذكرنا سابقا- لا يعدو ثلاثة أقسام هي: تعلق اسم باسم، تعلق اسم بفعل، تعلق حرف بهما معا. كما يقدم لنا عدة ألفاظ مرادفةلمصطلح النظم هي التأليف والتركيب، والترتيب، كما يشبهه بالبناء والوشي والتحبير، والصباغة، والتصوير، والنسج والنقش،...إلخ.

وأما البناء فقد جعله – الجرجاني- للمباني بحسب المعاني النحوية (الوظيفية) كأن "تبني" لمعنى الفاعلية "مبنى" هو الاسم المرفوع في بعض المواطن أو ضميرا متصلا في موضع آخر وضميرا مستترا في موضع ثالث، فالبناء هو اختيار المباني التي يقدمها الصرف للتعبير عن المعاني النحوية، وبوضع فكرة النظم بإزاء فكرة البناء يكون عبد القاهر قد عبر عن الارتباط بين المعنى والمبنى.

وأما الترتيبفهو وضع العلامات المنطوقة أو المكتوبة في سياقها الاستعمالي حسب رتب خاصة تظهر بها فوائد التقديم والتأخير اللذين كانا موضع عناية فائقة من لدن عبد القاهر، وكذلك يظهر بهذا الترتيب ما كان من الرتب محفوظا أو غير محفوظ (حسان، 2005).

ولعل أهم ما تطرق إليه الجرجاني في هذا المضمار هو "التعليق" فقد طرح بهذا الاصطلاح الجديد مفهوما جديدا بالنسبة للدراسة اللغوية في عصره. وقد قصد إلى دراسة العلاقات النحوية التي تربط بين العناصر اللغوية في النص ودلالاتها المعنوية بمعزل عن العوامل والعلل النحوية والاتجاهات الفلسفية الأخرى المستوحاة من العلوم والفلسفة اليونانية القديمة، ففصاحة الكلام لا تأتي عادة إلا نتيجة لهذا الارتباط بين العناصر اللغوية في سياق النص وما تحمله هذه العناصر أو الأجزاء من معان في نفس الناظم: «ليس للنظم من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم» (الجرجاني، 1988).

وكمثال على ذلك يأخذ الجرجاني الجملة الاسمية المؤلفة من مبتدأ وخبر فيقول: إن المبتدأ لم يكن مبتدأ لأنه منطوق به أولا، ولا كان خبرا لأنه مذكور بعد المبتدأ بل كان المبتدأ مبتدأ لأنه مسند إليه ومثبت له المعنى والخبر خبرا لأنه مسند ومثبت به المعنى... فإذا قلت زيد أخوك كنت قد أثبت ب "أخوك" معنى لزيد وإذا قدمت وأخرت فقلت: أخوك زيد، وجب أن تكون مثبتا بزيد معنى ل "أخوك" وإلا كانت تسميتك له الآن مبتدأ وإذ ذاك خبرا تغييرا للاسم عليه من غير معنى ولأدى إلى أن لا يكون لقولهم "المبتدأ والخبر" فائدة غير أن يتقدم اسم في اللفظ على اسم من غير أن ينفرد كل واحد منهما بحكم لا يكون لصاحبه.

وبهذا المفهوم الجديد طالب الجرجاني بإلغاء التحليل التقليدي المستوحى من علم المنطق وإحلال التحليل اللغوي المستند إلى معايير لغوية علمية محضة محله. فالإسنادفي هذه الحالة علاقة معنوية تربط بين طرفي الجملة الاسمية، وهما المسند والمسند إليه.

لا شك أن قيام النظم عند الجرجاني بتوخي معاني النحو يوجب حضورا عقليا واستعمالا منطقيا للغة، ولهذا يقوم الإبداع عنده على جملة من المراحل الواعية ينتظمها الأسلوب الفني بدءا من الذهن وتصوراته في المعنى والمبنى، إلى مرحلة مخاطبة المتلقي. وهنا يلزم أن يراعي الشاعر حالة المخاطب، لأن النظم يقوم على الرؤية والتفكير وهذا انطلاقا من الرؤية المؤسسة على أن النظم يقوم أولا على استحضار الفكرة أولا، ثم التمثل والنطق بها ثانيا.ويبقى الاختيار من العمليات المساعدة على كشف تفرد كاتب عن كاتب آخر، من خلال أسلوبه المتمثل في اللغة المعجمية التي انتقاها ورصها مفرداتيا بعضها إلى بعض، لتصير في النهاية لغة إبداعية فنية تستهوي القارئ، وترفع النص إلى مصاف الآثار الأدبية الخالدة.

لقد أراد عبد القاهر أن يجعل للنحو مفهوما متميزا، فأزاح عنه مجرد العناية بالإعراب وتمييز الخطأ من الصواب، ورمى به في ميدان أرحب، إنه ميدان الفن والبلاغة، على اعتبار أن هناك خاصيات دقيقة وفروق متباينة في الاستخدام والاستعمال، من شأنها أن ترفع من أسلوب وتخفض من آخر، فليست هناك مساواة تامة بين كل الأساليب فهي تتفاوت وتتعدد مستوياتها بدرجة كبيرة، شأنها في ذلك شأن معاني النحو، فهي أيضا لا نهاية لها، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها.

## المبحث الثالث: العلاقات النحوية الإبداعية :

إن تصور عبد القاهر للنحو وفهمه له قد رد الاعتبار للغة وأحلها المحل اللائق بها. فالنحو عنده ليس هذا العلم الذي يبحث في ضبط أواخر الكلمات، ولا هو جملة القواعد الجافة، وإنما النحو عنده هو العلم الذي يكشف لنا عن المعاني التي ندركها من علاقات الكلام بعضه ببعض، ومن استخدام الشاعر للغة استخداما يجعل من ارتباط بعضها ببعض نسيجا حيا متشعبا من الصور والمشاعر، يقول عبد القاهر: فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظمه أو فساده، أو وصف بميزة وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه.

إذن، فالمبدع يتصرف بوجوه النحو، طبقا لمبدأ الاختياروالانتقاء الذي يمليه عليه المعنى أو الغرض المقصود، ومن هذا المنطلق يكون عبد القاهر قد أعاد للنحو رونقه وصفاءه، كما استطاع أن يلتقي بالحقيقة الصلبة التي لا جدال فيها، وهي أنه لا مفر في ميدان الأدب من التقاء فلسفة الفن بفلسفة اللغة (العشماوي، 1975). وهو ما دعا إبراهيم مصطفى للقول: ولقد آن لمذهب عبد القاهر أن يحيا، وأن يكون هو سبيل البحث النحوي، فإن من العقول ما أفاق لحظة من التفكير والتحرر، وإن الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب ويزنها بقدرتها على رسم المعاني والتأثير بها من بعد ما عاف الصناعات اللفظية وسئم زخارفها.

إن عناية عبد القاهر بالشعر واهتمامه به ودفاعه عنه في الفصل الذي عقده في أول كتابه "دلائل الإعجاز"، واعتباره الوسيلة إلى بيان أسباب البلاغة والفصاحة وأنه الطريق إلى بيان إعجاز القرآن، يؤكد أن اللغة –عنده– أوثق اتصالا بالشعر منها بالمنطق، وأن النحو عنده أكثر ارتباطا بعلم المعاني والبلاغة منه بالقواعد المنطقية الجامدة، وحتما هذا ما ردده أيضا علماء اللغة المعاصرون، والأسلوبيون من أمثال "جيرو" Guiroud الذي ذكر في كتاب "مقالات عن الأسلوبية": أن "علم النحو يخترق النص مضيفا بعدا ثالثا إلى بعدي المعنى واللفظ، هو العمق، مستقطبا عناية الأسلوبية على نحو ما" (المسدي، 1982).

ويقول في موضع ثان "لا أسلوب دون نحو، ولا نستطيع أن نثبت العكس فنزعم أنه لا وجود للنحو بلا أسلوب". ويوضح علاقة النحو بالأسلوب في قوله: «النحو يضبط لنا قوانين الكلام بينما تتبع الأسلوبية وجوه التصرف به عند استعمال اللغة»(المسدي، 1982).

ويتفق "فينوغرادوف" Vinogradov مع عبد القاهر الجرجاني في طريقة النظر إلى النص الأدبي، فقد أكد في كتابه "أهداف الأسلوبية" على أن الأسلوب يتحدد في النص من خلال الروابط القائمة بين العناصر اللغوية المتفاعلة مع قوانين انتظامها(المسدي، 1982).

من هذا المنطلق تغدو علاقة الشاعر – أو المتكلم- بألفاظ اللغة أشبه بعلاقة الصانع بمادته الخام، فكل ما يفعله، هو أن يقيم بينها علاقات يتوخى فيها معاني النحو، وليست معاني النحو التي يتحدث عنها عبد القاهر هي القوانين المعيارية التي يجب أن تتحقق في أي كلام لكي يكون كلاما، ولكنها المعاني التي تحدث الفروق بين أسلوب وأسلوب وبين نظم ونظم.

علما أن الأسلوب أو النظم-عنده- هو البوتقة التي تفرغ فيها الكلمات المفردة، فتنصهر وتذوب ثم تتداخل معانيها حتى تصير معنى واحدا لا عدة معان. ونحن عندما نقول النظم فإننا نعني دقة الصنعة وإجادة الاختيار، وهنا يلتقي المؤلف بكثير من الأسلوبيين الذين يرون أن الأسلوبية تقوم على أساس دراسة الاختيار الذي يقوم به المتكلم.

وفي هذا الصدد كان لجاكسون فضل عقلنة هذا المنحى في تحديد الأسلوب، فقد استغل معطى لسانيا يتمثل في أن الحدث اللساني هو تركيب عمليتين متواليتين في الزمن ومتطابقتين في الوظيفة وهما اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية من الرصيد المعجمي للغة ثم تركيبه لها تركيبا تقتضي بعضه قوانين النحو وتسمح ببعضه الآخر سبل التصرف في الاستعمال(المسدي، 1982). ويعطي "ريفاي" لنظرية جاكبسون أبعاد إضافية محيلا على "بلوك"، إذ يعرف الأسلوب بأنه رسالة أنشأتها شبكة من التوزيع قائمة على مبدأ الاحتمال والتوقع.

وإذا كان عبد القاهر قد أكد على أن معاني النحو تقوم على فروق ووجوه كثيرة، ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها، وكلها من إبداع صاحب اللغة الذي يتوخى معاني النحو فيما يقول، فإن تشومسكي أكد هو الآخر أن المنهج الرياضي الذي يؤكد ميكانيكية التركيب، يساعد على وجود أنماط لا نهائية، وليست المسألة مجرد تلاحم بين الصيغ، أو رص كلمات، وإنما يجب أن نضع في الاعتبار دائما الصلات المعقدة متجاورة كانت أو غير متجاورة (عبد المطلب، 1995).

فيكاد الرجلان يتفقان في أن المتكلم يمتلك قدرة لغوية – أتيحت له عن طريق النحو- تسمح بتوليد عبارات لا نهائية.

ويؤكد الدكتور مصطفى ناصف أن كتاب عبد القاهر (دلائل الإعجاز) يكاد يكون أهم ما كتب في العربية على الإطلاق، إذ اهتم بصيغ لم يسبق إليها وإن استفاد من سابقيه، إذ كان يرى أن كلمة "النظم" أوضح من كلمة "النحو"، حاول إرساء مفهوم تعلق الكلمات بعضها ببعض كما رأى الدكتور، أنه إذا أريد لدراسة الأدب أن تبلغ درجة من النضج فلابد من إقامة رابطة بينها وبين المسائل النحوية المتعلقة بنظام الكلمات أو تركيب العبارات، فمن النحو يمكن أن ينشأ فصل مهم في علم الأدب (ناصف، 1989).

لقد استطاع عبد القاهر بتصوره هذا، أن يضع للأسلوب مقاييس مضبوطة تبعده نسبيا عن الأحكام القيمية التي كان يعير بها الإبداع، فحين أعاد صياغة النحو وجعله علما حيويا يمكن من خلاله تحديد مواطن الجمال في الكلام بعد أن كان عبارة عن قواعد جامدة، محصورة في كشف الغموض عن الكلم وتجنب اللحن والخطأ، أخرج النحو العربي من دائرة ضيقة كان يتخبط فيها لردح من الزمن وهي دائرة الصواب والخطأ، وأصبح عنصرا يساهم بشكل فعال في خلق الجمال في العمل الأدبي ويرقى به إلى الإبداع.

*** ختم :**

نخلص إلى أن المعاني النحوية-في النظرية الجرجانية- تتنوع تنوعا هائلا وثمة فروق دقيقة بين الأوجه التي تأتي عليها بعض المعاني فليست كلها في الاستخدام سواء، وإذا كان قيام علاقات نحوية صحيحة بين مجموعة من مفردات اللغة يحقق لها صفة النظم أو الأسلوب، فإن هذا لا يعني أن كل الأساليب متساوية، لأن المزية لا تكمن في المعاني النحوية أنفسها، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض، وهكذا تتعدد مستويات الأسلوب بدرجة كبيرة، فنجد منها ما هو محدودا من الناحية الفنية إذ لا يتجاوز الأمر فيه التزام قواعد الإعراب والتحرز من الخطأ، وليس لهذا المستوى مزية أو حسن لأن ذلك إنما يكون بلطائف تدرك بالفكر والروية، وأما العلم بالإعراب فهو أمر مشترك بين الناس كلهم.

وبهذا يكون عبد القاهر قد انفرد بين البلاغيين والنقاد العرب باستخدام مصطلح "الأسلوب" وساوى بينه وبين "النظم" مما يدل على فهمه المتميز للكلام الفني، وتبرز هذه المساواة من خلال اعتبارهما ممثلين لإمكانية خلق التنوعات اللغوية القائمة على الاختيار الواعي والوظائف النحوية التي تحدث مسافة توتر بين الدال والمدلول، فيتحقق للأسلوب وجود فعلي.

## مصادر ومراجع الدراسة:

1- أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، الناشر وكالة المطبوعات الطبعة الأولى 1974م.
2- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.2005م
3- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية 1981م.
4- شفيع السيد،الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، دار الفكر العربي القاهرة.2015م
**5-** عبد السلام المسدي،الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية 1982م.
6- عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى 1409هـ/1988م، دار الكتب العلمية بيروت.
7- محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، الطبعة الأولى، 1995م.
8- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر سنة 1979م.
**9-** مصطفى ناصف،اللغة بين البلاغة والأسلوبية، النادي الأدبي الثقافي بجدة السعودية 1989م.
**10-** مصطفى ناصف، النقد العربي، نحو نظرية ثانية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، مارس 2000م.

## Study Sources and Reference

Ahmed Mutalib, Abdul Qahir al-Jarjani, his eloquence and criticism, publisher of the first edition of the Publications Agency 1974.

Tammam Hassan, Arabic means and building, House of Culture, Casablanca, Morocco.2005

Hamadi Samoud, the rhetorical thinker of the Arabs, founded it and developed it into the 6th century, the official printing press of the Tunisian Republic in 1981.

Sha'aa al-Sayed, Stylistic Trend in Literary Criticism, Cairo Arab Thought House.2015

Abdessalam Al-Masdi, Stylisti and Stylistic, Arab Book House, 2nd Edition, 1982.

Abdul Qahir Al-Jarjani, Signs of Miracles in The Science of Meaning, Sheikh Mohammed Rashid Reda's Realization, First Edition 1409 Ah/1988, Beirut Scientific Books House.

Mohammed Abdel Mutallab, Issues of Modernity by Abdul Qahir Al-Jarjani, Library of Lebanon Publishers, Egyptian International Publishing Company, First Edition, 1995.

Mohammed Zaki Al-Ashmawi, Issues of Literary Criticism between The Old and The New, The Arab Renaissance House for Printing and Publishing in 1979.

Mustafa Nasif, the language between rhetoric and stylisticism, literary cultural club in Jeddah, Saudi Arabia, 1989.

Mustafa Nassif, Arab Critic, Towards a Second Theory, National Council for Culture, Arts and Literature, Kuwait, March 2000.